

البلاغة بين المعجم والخيال في قصيدة النهر والموت للسياب

م. د. مثنى جواد العكيدي
وزارة التربية / المديرية العامة لتربية الكرخ الأولى
معهد الفنون الجميلة للبنات/ الدراسة الصباحية

ملخص

هذه القصيدة التي تضمنها ديوان بدر شاكر السياب الذي يعد من أشهر دواوينه (أنشودة المطر) والذي يعد أكثر فنية ونضجاً، وهو يمثل نتاجه الذهبي فهي مرحلة استطاع الشاعر أن يتحرر كثيراً من القيود، أقصد (معاناته الدينية) ليرسم لون آخر هي معاناة الناس، وكيف يرى لهم الخلاص فظهرت روحه الوطنية التي لم تغفل يوماً عن العراق وما فيه من الام لماذا قصيدة (النهر والموت لعل هذه القصيدة ترسم الحقيقة التي يعيشها السياب فقد استولت هذه القصيدة على كثير من قلوب الناس، وكنت أنا منهم في السادس الاعدادي لماذا النهر والموت) من هو بويب وما الأجراس ... خواطر.

كلمات مفتاحية : البلاغة ، المعجم ، السياب

Rhetoric between the lexicon and imagination in the poem "The River and Death" by al-Sayyab

Dr. Muthanna Jawad Al-Aqidi

Ministry of Education / General Directorate of First Karkh Education

Institute of Fine Arts for Girls/ Morning Study

summary

This poem, which was included in the Diwan of Badr Shaker al-Sayyab, which is one of his most famous collections (The Song of Rain), which is considered more artistic and mature, and it represents his golden output. He sees salvation for them, so his patriotic spirit appeared, which never neglected Iraq and the pain in it. Why the poem (The River and Death? Perhaps this poem depicts the truth that Sayyab lives? This poem captured many people's hearts, and I was one of them in sixth grade, Why the River and Death) from Ho Webeb And What Bells ... Thoughts.

Keywords: rhetoric, lexicon, Sayyab

المقدمة

كادت تقتلني ومرت السنين وها أنا أقف على هذه القصيدة التي اشغلتني كثيراً

استخرج ما فيها من بلاغة ولغة وخيال يجول في خلجات الشاعر فقد تناولت بالدراسة والتحليل الوصفي⁽¹⁾، لما فيها من ثراء وخصب يجعلها محط أنظار الكثيرين من الدارسين أدباً وبلاغة ولغة ، والأغرابه في ذلك الان تاريخ الادب حافل بالشواهد الخالدة، التي تبقى تبعاً لرتاده اجيال ودارسي الأدب وعشاقه ، فاخذت على عاتقي في بيان الجانب البلاغي والمعجمي فضلاً عن خيال الشاعر، أن كل مفردة

(1) حركة الإبداع خالدة سعيدة ١٤١-١٩٢.

في قصيدة السياب لها دورها وثقلها في حياة الشاعر فأما النهر الذي هو (بويب) فله الرصيد الأكبر فيه ذكريات الشاعر ، وهو يمثل الامه وأحزانه التي طالما ذكرها الشاعر كي يخلص من لهيب معاناته، وأما الموت فهو الهاجس الذي طالما صحب الشاعر حتى صار تلك الأمنية التي تهفو نفسه إليها ، فلم يتمرد شاعرنا على (الموت) إلا نادر، ومن ثم أصبح عنده رمز من رموز الثورة التي يعبر بها عن صراعات الجماهير والسلطة القاهرة ، هذا كان في زمن قادراً على الرفض أو التمرد⁽²⁾، أن تحول مفهوم الموت عند الشاعر إلى أسطورة ليس تصوراً شعرياً فقط، بل أصبح مفهوم حتى يراود خواطر الشاعر من حين إلى آخر⁽³⁾، إلا أن هذه الصحبة طالت حتى أصبح ينظر إلى كل شيء من خلاله.

فالذي يطالع دواوين الشاعر (المعبد، الغريق، واقبال) يلح كيف أصبحت الحياة في نظر الشاعر موتاً حقيقياً، فكل شيء : في مخيلة الشاعر إلا الموت أصبح يكبر ويكبر في مخيلته إذا الشاعر في هذه القصيدة لم يعرض الشاعر أياً من الرموز التي اعتاد الشاعر ذكرها ، فكتفى بالعالم الخيالي الذي أجاد رسمه، وكان هذه القصيدة، مناجاة للنهر، كي يخفف عنه شيء من أعباء الحياة، فتبدأ قصيدته:

بويب بويب

أجراس برج ضاع في قرارة البحر

الماء في الجرار، والغروب في الشجر

وتتضح الجرار أجراساً من المطر

بلورها يذوب في أنين

" بويب .. يا بويب "

فيدلهم في دمي حنين

إليك يا بويب

يا نهري الحزين كالْمَطَر

أود لو عدوت في الظلام

أشد قبضتي تحمّلان شوق عام

في كل إصبع كاني أحمل النذور

إليك من قمح و من زهور

أود لو أطل من أسرة التلال

لألمح القمر

يخوض بين ضفتيك يزرع الظلال

(2) ينظر: القصيدة وتحولاتها على الطاغي ١٩:١٠٩.

(3) ينظر: الفن والحلم والفعل جبراً.



و يملأ السلال
بالماء والأسماك و الزهر
أود لو أخوض فيك أتبع القمر
و اسمع الحصى يصل منك في القرار
صليل آلاف العصافير على الشجر
أغابة من الدموع أنت أم نهر؟
و السمك الساهر هل ينام في السحر؟
و هذه النجوم هل تظل في انتظار
تطعم بالحرير آلاف من الإبر؟
و أنت يا بويب
أود لو غرقت فيك ألقط المحار
أشيد منه دار
يضيء فيها خضرة المياه و الشجر
ما تنضح النجوم و القمر
و أغتدي فيك مع الجزر إلى البحر
فالموت عالم غريب يفتن الصغار
وبابه الخفي كان فيك يا بويب
بويب .. يا بويب
عشرون قد مضين كالدهور كل عام
واليوم حين يطبق الظلام
واستقر في السرير دون أن أنام
وارهف الضمير دوحة إلى السحر
مرهفة الغصون والطيور
والأسر أحس بالدماء والدموع كالمطر
ينضحهن العالم الحزين
أجراس موتى في عروقي ترعش الرنين

فيدلهم في دمي حنين

إلى رصاصة يشق ثلجها الزوام

أعماق ، كالجحيم يشعل العظام

أود لو عدوت أعضد المكافحين

أشد قبضتي ثم أصفع القدر

أود لو غرقت في دمي إلى القرار

لأحمل العبء مع البشر

و أبعث الحياة ، إن موتي انتصار

يتضح للقارئ من عنوان القصيدة (النهر والموت) هذا التضاد، فالنهر رمزاً لهذه الحياة المتدفقة أما الموت فهو الأجل المحتوم والمكتوب على كل أبن آدم أن بلاغة هذه القصيدة تمثل اينموذجاً حياً لواقع أليم مرير يبدأ بنداء "بويب بويب" نهر منادي كي يدخله في نسيج القصيدة فالأنشاء الطلبي أثمر عن لوعة في نفس الشاعر تحكي روح القصيدة الحاملة ، لأن كثيراً ما يلعب الحلم دور تلك الأسطورة فمن هنا جاءت بلاغة القصيدة مسوقاً بتأثير أنفعال الشاعر وتجربته الشعورية فحذف (يا النداء) في أول القصيدة يؤدي إلى غموض خيالي سمعه مقصود، يوحي بحياة الشاعر التي كانت فيها شيئاً من هذا الغموض فالشاعر حذف ياء النداء وكأنه يوقظ (ينده) هذا النهر بهدوء ، فهو هنا لا يرد أن . أحد عندما يخاطب هذا النهر بحيث يغمره إحساس وشعور حينما ينادي هذا التعبير اللفظي وينمي الحالة الشعورية ، ولعله هنا لم يكن بوعي كامل ، لأن اختيار الألفاظ وتنسيقها لا يتم إلا بأرادة كاملة⁽⁴⁾، ثم نرى علاقة بويب بـ الأجراس أو بالأحرى ماهذه العلاقة ، أن الصيغة البلاغة للنص الشعري (أجراس كناية هنا عن الصوت الذي يخرج من خلال تدفق الماء الجاري بسرعة في النهر، وما يحدث هذا الصوت في النفس، وكأن النص الشعري فيه عدوى بتكرار اللفاظه، فهذا التكرار البلاغي له وقفه وصدى عميق في نفس الشاعر فضلاً عن السامع ففي قوله الشاعر :

فيدلهم في دمي حنين

إليك يا بويب

يانهري الحزين كالمطر

التشبيه الماء بالماء والنهر كالمطر فالعالم الناضح بالحزن والدموع كالمطر لعل هنا بلاغة التشبيه لا تهتم بنوعية المطر أو الكميته أو عنصره أو شكله إنما تهتم بصوته لأنه يعطي جرساً يخاطب الاذن ، فهذا التشبيه يوحي بأن المطر حزينا، كأحزان الشاعر، لتأتي أفعال التمني في القصيدة المتكرست مرات ، تخبرنا بهذه الأمانيه التي تقطع أنفاس الشاعر:

بين الحين والآخر

أود لو عدوت بالظلام



أذاً هنا كناية عن خوف الشاعر والظلام الذي يخيم على صدره ما أثقل هذا على النفس ، ثم يقول:

أود لو أطل من أسرة التلال،

فقرن فعل التمني بالأداة (لو) التي طالما أثقلت النفوس وما تخفي ورائها من أحلام وآهات حزينة تسمى (لو) تفصل لامها عن الواو فتقطع تلك الأمانى الفعل فكم مرة أرهقت الأداة (لو) النفوس وأتعبتها، فبنية النص البلاغية عامرة بالالفاظ وأن كانت قليلة إلا أنها تحاكي مفهوم الألم والحزن لدى الشاعر ،

"أود له أحوض فيك أتبع القمر"

ما أروع هذه الصورة الحية التي تنمو عن أحساس طفل يتبع صورة من يراه لكن لا يستطيع الوصول إليه فهي تتلاشى مرة بعد أخرى أود لو غرقت فيك القط المحار) أمنية توحى بالخلاص من الحياة، فمنها كناية عن الاحلام التي تبني في خيال الشاعر، بأن يكون له وطن ياوي بأحاسسه ومشاعره بالألم ناسه وشعبه، أمنيات تتصارع فيما بينها لتوحى إلينا حركة المكان والزمن في أجواء القصيدة فلمح القمر، والخوض في النهر والغرق فيه كلها أمور يذكرها الشاعر كي يجعلنا نركض وراء كلماته وتشعر بما يدور في خلجات نفسه تلقنا لفظه (يدلهم) التي لم نألف أسنادها إلى الحنين

" فيدلهم في دمي الحنين

هذا الاحساس الذي يضني الشاعر ، يؤلم ويعذب ويشد، لكنه لا بد لهم فالفعل (أدلهم) يعني (أظلم) (4) فيبذل إن الحزن كان هو هذا الطابع الذي له أن يسود تجربة الشاعر الشعرية، فكأن هذه اللفظة اندفعت من (لا وعي) متناغمة مع أنفعاله لتتبع شحنتها على أجواء القصيدة ثم نراه يكرر السياب ذكر الحنين (الملهم) مرة ثانية في ختام القصيدة : فيقول مع

فيدلهم في دمي حنين

إلى رصاصة يشق ثلجها الزوام

أعماق صدري كالجحيم يشعل العظام

أود لو عدوت أعضد المكافحين

أشد قبضتي ثم أصفع القدر

أود لو غرقت في دمي إلى القرار

الأحمل العبء مع البشر

وأبعث الحياة. إن موتى انتصار

أعماق صدري، كالجحيم يشعل العظام

فتأتي الصورة الداخلية التي نسمع من خلالها نبضه إذا لدى الشاعر رغبة من الخلاص من هذه الحياة، فنجد الحنين عند الشاعر متناغماً والسياق البلاغي واللغوي المألوف في أطار التجربة الشعرية فضلاً عن الحالة النفسية المتأزمة في تلك اللحظة. فلفظة (في دمي حنين رصاصة يشق ثلجها (الزوام) مجاز مرسل يراد به أشياء متراكمة في نفس الشاعر لا يستطيع الإفصاح عنها خشية ملامه



الناس، فضلاً عن التشبيه بلفظة (كالجحيم) فقد شبه الشاعر، ما يجده في قرارة صدره من ألم وضيق وحزن يطبق على أنفاسه فلا يستطيع التخلص منه لأنه أصبح (جحيم) بما يحمله هذه اللفظة من خوف وقلق وارتباك حتى غدة عظامه حطب يشعلها جحيم صدره⁽⁵⁾، فعلى الرغم من مرارة الحزن الذي يثيره الخريف في النفوس، ولاسيما أولئك " البعيدين عن أوطانهم، فمن الطبيعي نجد ليال الغربه تثير الحنين مصحوباً بالاكتئاب ولأنين سواء أكان هذا الحنين وهماً أم حقيقة فهو يقول في قصيدة أخرى:

كان الهوى وهماً يعذبني الحنين الى لقائه

سائلة عنه الامنيات، وبث أحلم بارتمائيه

فالطاقة الايحائية لفظه (أدلهم) على وفق دلالاته المعجمية صورها في إطار صورة جميلة ضمتهما قصيدته غريب على الخليج

(وهي النخيل أخاف منه إذا أدلهم مع الغروب)

فنرى في القصيدة توتر فيها تجربة شعورية في خلق صيغ مجازية غير تقليدية، تشئ بما ورائها من انفعال فحين يهدد الانهيار رمزاً فيعقد الشاعر تساؤلات تملأ نفسه بعد أفعال التمني المليئة بالحزن والألم

والسمك الساهر هل ينام

وهذه النجوم هل تظل في الانتظار

أن الخطاب لغير العاقل يجعل القارئ يجول فكرة جيداً في هذه الابيات فالكناية عن عدم النوم حتى وقت السحر، وكناية الامل الذي ينتظر أحداً فهذه النجوم وحركتها ولمعانها جعلت الشاعر يصاب بالأرق الذي يعجز صاحبه عن النوم أو حتى التفكير به، فجاءت هذه الكناية عناصر أساسية لبناء الصورة على وفق خيال الشاعر وهناك ألفاظ أخرى جاءت منتقاة من بين مثلات لها أسناداً للجانب البلاغي في النص الشعري، كونها ملائمة لأحاسيس الشاعر وهو سيشرع في التعبير عن تجربته الشعرية⁽⁶⁾، فلفظة (الانتظار) في قوله وهذه النجوم هل تظل في انتظار (صفه لهذه النجوم، وليس الإحساس الشاعر أنه ينتظر في الغربه؛ ثم نلمس مثل هذه الدلالة في قصيدة

((غريب على الخليج))

أما قوله : وانت يابويب أود لو غرقت فيك القط المحار فبلاغة لفظه (غرقت) جاءت كناية عن الغوص في هذا النهر فكانت أكثر صلاحية للتعبير بأن هناك رغبة ملحة للشاعر في وضع نهاية لمعاناته.

فلم يوظف لفظه (يغوص) كما ذكرنا سابقاً فيصبح المقطع أود لو (أغوص) فيك القط المحار فقد أدنت بموت البيت فلاشك أن السياق البلاغي يفرض عليه إيجاد عاملاً قوياً فرض عليه ذلك الاختيار،

(5) ينظر: اساس البلاغة، د. يحيى: 83.

(6) ينظر: البلاغة فنونها وافنائها: 245.

أنها الحالة النفسية والرغبة في ولوج الشاعر عالم الموت الذي كان (الغرق) مدخلاً إليه ، ومما يؤكد هذا المقطع، فالموت عالم غريب يفتن (الصغار) فالفعل (يفتن) يوحي من سياقه البلاغي هو الآخر، الذي يفسر المصير المحتوم، فهو لا يشعر برهبة أو خوف حين يوجهه، فضلاً عن إنه لا يكرهه بل هو (مفتون) به فالصورة الشعرية عنده صادقة في تصوير الحقائق والتعبير عن أساسه فقد صرح بافتنانه بالموت إلا أن نسبه هذا الشعور الى الصغار (بافتنانه) مجاز عقلي لأن الفتنة تكون في أمر أخرى مثل (النساء - المال - الولد ...) ألا إنه كان واثقاً بأنها ستنتال رضى القارئ أو المتلقي السامع ، ولعل عالم الطفولة غريب زاخر بالعجائب فتقتصر شاعرنا بالصغار دون (الكبار) لأنه سيلقى الرفض حتماً، ثم تصادفنا لفظة أخرى (حنين) الواردة في قوله:

((فيدلهم في دمي حنين))

أن استخدام هذه اللفظة في التعبير تفرض عاطفة أو شعور، إذا هناك رابطة حقيقة أو صورة بين طرفين؛ الانسان يحن إلى وطنه اذا فارقه ، لكنه لا يمكن أن يحن إلى بلد لم يره. فقد ربط الشاعر لفظه الحنين الى رصاصه تصور فكرة نهاية الشاعر أو لنهاية لحياته برصاصه، فتكرار هذه الفكرة في وجدانه الى درجه اعتيادها والأنس بها، فالانتقال من (الحنين) الى (رصاصه) قد ألغى رسوخ الحنين ولعلها رصاصه الرحمة. لقد تميزت هذه القصيدة بغلبة الروح الشفافة عليها شأنها شأن بقية القصائد، ولعل هذه الشفافية هو تعبيراً عن الجانب الحالم في نفس الشاعر ، فتألق الخيال فيه فالقي لمسح على لغة مفردات وتراكيب، فضلاً عن تأثير العاطفة المتأججة ، وكان هذه القصيدة كتبت بروح تملأها الايمان أشبعت بألفاظ بلاغية فتجرده حرف النداء بلفظة

بويب - بويب

وكأنه يهمس، يحس القارئ بالانتباه الى صور نسجت خيال الشاعر مبدع ، أن الانغماس بهذه الصورة الحاملة تتمثل (أغابه من الدموع أنت أم نهر والسمك الساهر هل ينام في السحر وهذه النجوم هل تظل في انتظار تطعم بالحرير الأدفأ من الابر) أستعار لفظة الغابة للدموع تعبيراً عن كثافته هذا الحزن في نفس الشاعر، ثم يضع لمسح واقعيه تزيد ارتباطها بأحاسيس المتلقي واليوم حنين يطبق الظلام وأستقر في السرير دون أن أنام أحس بالدماء والدموع كالمصر

أن هذا العشق والاحساس واللغة الشفافة⁽⁷⁾، فالكناية (يطبق الظلام عن قدوم الليل، والتشبيه (كالمطر) عاملاً هاماً في رسم صورة بلاغية فنية فقد أشبع النص بالمجازات مالم تألفه اللغة (غابة من الدموع) و(السمك الساهر) ، تطعم بالحرير الافأ من الابر)، فهذه تدل على ثقافة لشاعر وتأثره بالأدب الانكليز في ابتكار هذه المجازات⁽⁸⁾، فضلاً عن أنها ظاهرة عامة أتسم بها الشعر الحديث أو المعاصر كله⁽⁹⁾؛ ولعل لفظة (الصليل) فيها شيئاً من الغرابة تصدم الذوق الذي لم يألّف هذا النمط، فالصليل في المعجمات صوت الحديد، أو هو صوت لجام الفرس فهناك استعارة ذكرها

(7) ينظر: النقد الأدبي: أصوله ومناهجه : سيد قطب : ١١٠.

(8) ينظر: التركيب اللغوي لشعر السياب / د. خليل إبراهيم : ١٣٣.

(9) ينظر لغة الشعر : إبراهيم السامرائي : ٦٧ - ٩٧.



لطيفه نراها أكثر أشرفاً

أودعها قوله : أصيلي..... فهذا صليل القيود

لقد تحدث الدكتور ابراهيم السامرائي ((رحمه الله تعالى)) عن هذه القصيدة قائلاً (ما زلت أذكر أنني وجدت لدى السياب ولو عاً بكلمة (الرؤى) فأكثر منها، وكذلك آية أستعمل (ليهدف) مرات كثيرة ، خرجت منها بأنه غير واقف على حقيقة هذه الكلمة إلا أن هذا كله لا يقلل من رصانة البناء اللغوي والبلاغي للشاعر فعلى هذا الخلل ظاهرة أن سيجد عند كثير من شعراء آخرين

أجراس موتي في عروقي ترعش الرنين

فالشاعر يدق ناقوس الخطر فكل شيء من حوله يوحي بالموت ولا شك أن الشاعر يحتضر داخلياً وكأنه ميت بثياب أحياء تمشي على الأرض ، فإنه لم يبقه في هذه الدنيا الفانية إلا بقية هذا الحنين الذي جعل منه روحاً تحمل في ثناياها هذا الحنين، ثم يبدو جلياً إن (بويب) علامة بارزة في وجدان السياب، فقصيدته (جيكور، وبويب) أبرز المعالم على التأجيج العاطفة في أية قصيدة ينجحها فيها الشاعر، فلا شك من رقي العمل الفني الذي يقترن بصدق بتجربة الشاعر الشعور به في ذات مبدعه

إن كتابة النص الشعري يرمز إلى بلاده العراق فالشاعر أتخذ من هذا النهر حنينه وشوقه وآلامه، فليس من المعقول ؛ إذا الشاعر يجعل أو يختزل العراق الوطن طفولته بل كل شبابه، فحزن الشاعر كله يعود إلى فقره وهو أهم الأسباب التي ربما جعلت الشاعر يبدع في إحساسه في مشاعره في اختيار الفاظه، لتلك المعاني التي يخرجها من قرارة نفسه سلاماً على السياب وعلى تلك الروح الطاهرة.

ثبت المضان

- (1) أساس البلاغة، الزمخشري دار صادر، بيروت ١٩٧٩
- (٢) تاريخ الادب العربي ، العصر الجاهلي شوقي ضيف ط ١١ / المعارف / ١٩٦٠ .
- (3) حركة الابداع، د. خالد سعيد ط ٢ دار العودة، ١٩٨٢
- (4) ديوان بدر شاكر دار العودة بيروت ١٩٧١ .
- (٥) الفن والفعل والحلم جبر إبراهيم جبرا، دار الشؤون الثقافية، العراق ١٩٨٦
- (٦) القصيدة العربية وتحولها ، علي الطائي ط - الشؤون الثقافية ، العراق ...؟